

## دراسة فنية لشعر معروف الرصافي

## An Artistic Study of the Poetry of Ma'rūf Al-Russāfi

Dr. Muhammad Saleem\*

Dr. Syeda Bano\*\*

## ABSTRACT

Ma'rūf bin Abdul al-Ghanī al-Russāfi was a great Arabic poet and writer. As a great advocate of freedom he opposed his contemporary rulers of Irāq. He was known as a poet of freedom. After serving at various indigenous Educational Institutions, he started work as lecture at the Royal College Istanbul as lecturer, after the fall of the Ottoman Empire, he left Istanbul and travelled to Syria as the British authorities in Irāq. He settled in Damascus for one year. He returned to Irāq and started a newspaper: Al-Amal. He joined the committee for translation as its vice chairman. He became an inspector in the directorate of Education. He became a professor at Higher Teachers institution in end of third decade of nineteenth century. Ma'rūf Al-Rassāfi served his country as a social worker. He was acquainted with western literature through translation and his writing career while he was in Istanbul.

He wrote poetry in four chapters and this article is about his poetry entitled: An artistic study of the poetry of Maruf Al-Rasafi . His Arabic poetry is full of elements of rhetoric, as he uses similes metaphors, illusions, hints and other rhetorical phenomena. His Arabic poetry is full with new trends especially social and political trends. We tried to elaborate these trends with examples from his poetry. He uses new vocabulary style and terms in his poetry, we have tried our best to present all these elements from his Arabic poetry in this article. We have tried to present its contribution to Arabic poetry in Modern period. We tried to present its status among its contemporary scholars. The article describes a best collection of his rhetorical phenomena in his Arabic poetry.

**Keywords:** *Rhetoric, Poetry, Trends, Social Values, Irāq, Maruf Rusāfi.*

\* الأستاذ المساعد، ورئيس قسم اللغة العربية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

\*\* الأستاذة المساعدة، قسم اللغة العربية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

الحمد لله الذي أحسن كل شئى وبدأ خلقه خلق الانسان من طين ثم جعل نسله سلالة من ماء مهين وأتاه عقل سليم ولسان مبين وجعل اللسان العربي أساس الألسنة ومخرجا وأقومها منهجا وأوضحها في العبارة بيانا، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وجعله أفضل الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ، أما بعد:

فهذه الدراسة القيمة دارت حول الشاعر العربي العراقي معروف الرصافي حياته وشعره وموضوعات وأغراض شعره بايجاز بالغ. فبدأ الرصافي شعره بالوصف وهو أقوى أغراض الشعر خاصة الوصف الاجتماعي والوصف الانساني والوصف السياسي كما دافع الرصافي في شعره عن حقوق شعبه ووطنه وحضارته، ثم شعره الفلسفي والكوني.<sup>1</sup> وكذا نتحدث عن محسنات بديعية الواردة في شعر معروف الرصافي.

عبد الغني بن محمود الجباري الحسيني المعروف بالرصافي، وكان كروياً من جانب والده وعربياً من جانب أمه. وكان يعمل في حكومة الدولة العثمانية، فولد معروف الرصافي في سنة 1875م بمدينة بغداد في منطقة الرصافة، وتلقى دروسه الابتدائية في الكتاتيب والمدرسة الرشيدية، ثم ترك هذه المدرسة والتحق بدروس العلامة محمود الشكلى الألوسى وحصل مهارة تامة في اللغة العربية وعلم المنطق.<sup>2</sup> وبعد تكميل دراسته، فعمل الرصافي محرراً في عدة أماكن مثلما، عمل الرصافي محرراً في جمعية الاتحاد والترقى في مجلة: سبيل الرثاء ثم عمل مدرساً للغة العربية في عدة مدارس عراقية ومن أشهرها: السلطانية والوعظ وغيرها. وتولى الرصافي إصدار مجلة: الأمل اليومية حتى أصبح الرصافي مدرساً للغة العربية في دارالمعلمين ثم عمل رئيساً للجنة الاصلاحات العلمية في سنة 1927م.<sup>3</sup>

### سندكمولفات معروف الرصافي ألتى طبعت، فمنها:

**الرويا :** رواية تركية للأديب التركي نامق كمال، فقام معروف الرصافي بترجمتها الى اللغة العربية وطبعت هذه الرواية في سنة 1909م بمدينة بغداد. **الأناشيد المدرسية :** وهذا الكتاب يحتوي على مجموعة من الأناشيد المدرسية وكل منها مدونة بالنوتة الموسيقية، فقام الرصافي بنظم الأناشيد المدرسية عندما كان في القدس مدرسا في دارالمعلمين، وطبعت هذه مجموعة الأناشيد بمدينة القدس في سنة 1920م. **دفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة** وهذا الكتاب يحتوي بتوضيح بعض الألفاظ العربية وغير العربية بين ألفاظ اللغة العثمانية، وطبعت هذا الكتاب بمدينة الأستانة في سنة 1313هـ. **ونفح الطيب في الخطابة والخطيب** ويحتوي هذا الكتاب على المحاضرات التي ألقاها الرصافي على طلابه عند ما كان الرصافي مدرسا في مدرسة الواعظين وناءيا في مجلس المبعوثان العثماني بمدينة الأستانة. ويحتوي هذا الكتاب على الموضوعات

1 قاسم الخطاط والآخرين، معروف الرصافي شاعر الأدب الكبير، إحياء المصرية لتأليف والنشر، 1391هـ، ص198-

202

2 دكتور محمد شيخة، خطاب الواقعية ومقومات الفكر الحضارى، في شعر معروف الرصافي، بدون طبع، ص 63-64

3 محمد الباوي، عمالقة الأدب العربي المعاصر، دار الأرقم قاهرة مصر، 17/1

إبراهيم عبد الغني، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، مكتبة الرابطة لمجلس معروف الرصافي، بغداد، 103/1-5105

التربوية وقصص الأطفال، وبعض النكات العلمية، فطبع هذا الكتاب في سنة 1924م. محاضرات الأدب العربي وهذا الكتاب يحتوي على مجموعة المحاضرات التي ألقاها الرصافي على معلمى المدارس الرسمية عند ما كان يعمل في وزارة المعارف رئيساً للجنة التأليف والترجمة في سنة 1921م. ودروس في تاريخ اللغة العربية ويحتوى هذا الكتاب على مجموعة المحاضرات التي ألقاها الرصافي على طلاب دارالمعلمين العالية في بغداد في سنة 1928م عندما كان الرصافي مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف وطبعت بمطبعة المعارف ببغداد. على باب سجن أبي العلاء ويحتوى هذا الكتاب على تعليقات الرصافي على كتاب مع أبي العلاء في سجنه للدكتور طه حسين، وطبعت هذا الكتاب بمطبعة الرشيد بمدينة بغداد. ديوانى الرصافي : وكان الرصافي شاعراً كبيراً عربياً وله ديوانين، طبع الثانى منها ست مرات.<sup>1</sup> ومن كتبه غير مطبوعة : فنجد بعض الكتب القيمة لمعروف الرصافي وهى كالتى :

- خواطر ونوادر - الرسالة العراقية
- آراء أبي العلاء - كتاب الآلة والادارة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهبات

#### الشخصية المحمدية

توفى الرصافي في سنة 1945م،<sup>2</sup> وقبل وفاته كتب الرصافي وصيته التى قال فيها: "كل ما كتبه من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية وإنما قصدت به منفعة المجتمع".<sup>3</sup> واكتسب معروف الرصافي شهرة واسعة بفضل أشعاره، فنظم شعره في الفخر والمدح والثناء والهجاء ومكتسباً نظريات واتجاهات جديدة وأجاد الرصافي في طرح المواضيع السياسية والاجتماعية، فنادى الرصافي بالتغيير ونشر العلم وقضايا المرأة والقضايا على التعصب الطبقي والظلم وانصاف الطبقة الباسة. فنجد في شعره مظهراً من مظاهر التجدد والأغراض الشعرية الجديدة كما هو يقول :

وللنفس في أفق الشعور محاييل اذا برقت فالفكر من برقتها قطر  
وما كل مشعور به من شوونها قديرعلى ايضاحه المنطق الحر  
ففى النفس ما أعيا العبارة كشفه وقصر عن تبياه النظم والنثر<sup>4</sup>

ان الصلة بين الأديب أو لشاعر والمجتمع الذى ينتمى اليه عريقة جداً منذ العصر القديم، فالأدب في الأصل نشأته ولد من رحم المجتمع بما فيه من عادات وتقاليد فهو . . . الشاعر يستمد موضوعاته من هذا المجتمع، وسعى كثير من الباحثين والنقاد الى اثبات هذه الصلة بين الأديب والمجتمع،

1 وليد العظمي، تاريخ العظيمة، مكتبة الرقيم بيروت، 1999م، ص 571-1572

2 ذكي، محمد أمين، مشاهير الكرد والكرديستان، مكتبة تحفيظ الأهلية، بغداد، 1945هـ، 919

3 ساجدة الخلاف، اللغة الشعر لدى معروف الرصافي والعصر الإيقاء، بدون تفصيل، 212/38

4 الرصافي معروف، ديوان معروف الرصافي مراجية، متحف الجيلانية، مؤسسة هندواوى للتعليم والثقافة، قاهره مصر،

وقد قال ماركس بهذا الصدد: "ان الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة ملتوية أحيانا العلاقات الاجتماعية".<sup>1</sup>

ومنهم من يرى أن الأدب (صورة معبرة تعبيراً حقيقياً عن المجتمع الذى يحيا فيه الأديب والذى تربى في أحضانه منذ نعومة أظفاره، وقد تفاعل مع مقوماته).<sup>2</sup>

وكان معروف الرصافي شاعر المجتمع الذى عاش فيه، ناقداً للظروف الحياتية وداعياً الى اصلاحها. ومن ملامح شعر الرصافي الاجتماعي فمنها المرأة وتعليم المرأة واختيار الزوج والعلم والجهل والبؤس والفقر والسبب النفساني وبيعة الشاعر والحكمة وغيرها.

سنحاول أن نقدم موضوعات شعره كما نظم شعره بالعناوين الآتية: نحن والماضى، ومعتك الحياة، وأم اليتيم، والسجن في بغداد، والدهر والحقيقة، وفي سبيل حرية الفكر. والى أبناء المدارس، والمطلقة، واليتيم في العيد، وسياسة لا حماسية، والى الشباب، والدهر، والى أبناء الوطن، والمعهد العلمى، وفي منتدى التهذيب، والفنون الجميلة، والحياة الاجتماعية، وفي سبيل الوطنية، وفي المدرسة : دارالتفويض، والمدارس ونهجها والعلم والاجازة فيه، والعلم، ودار الأيتام أو مدرسة شنلر في القدس، والفقر والسقام، وتبنيه النيام، وسوءالمنقلب، والعادات، وبعد الدستور، وإيقاظ الرقود والصديق المضاع، وبعد البين، ويقولون، وفي سبيل الوطن، وبين تونس وبغداد، وفي حفلة الشوقى، والأمة العربية: ماضيها وباقيها، وفي ايلياء، واتجاه الريحاني، وبنى الأرض، والحمدلله للمعلم، وعرس مصر، ومن مضحكات الدهر، والشارع الكبير، وعلى الخوان، وتحية سركيس، والى البلاغ، وفي حفلة الزهاوى، والى صاحبة الحياة الجديدة، والى المتعلم، واليتيم المخدوع، وميت الأحياء وحى الأموات، ونحن في بغداد، ورقية الصريح، ومثنيات شعرية، والى المتقاعدين من ضباط الجيش، ودارتربية الطفل، وخزانة الأوقاف، والتعصب الوطنى للأدب، وعتاب وولاء، ومناجاة وشكوى، وفي حفلة الميلاد النبوى، والى العمال وغيرها.

ف نجد اهتماماً كبيراً بموضوع اليتيم في شعر معروف الرصافي كما نظم الرصافي أربع قصائد حول الموضوع المذكور فمنها: أم اليتيم واليتيم في العيد ودار الايتام واليتيم المخدوع وأنها جميعاً، توجد في الجزء الأول من ديوانه وسلك فيها على مسلك حافظ ابراهيم في الذى عاش الحديث عن دور الايتام. أما حافظ ابراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢م) فقد نشأ يتيماً وعانى من مرارة اليتيم ما عانى، حيث عاش في كنف أبيه لأربع سنوات، بعد وفاة أبيه ثم عادت أمه الى بيت أسرهما، وتوفى جده قبل ولادته فتولّى أمره وأمر أسرته خاله (محمد نيازى الذى كان مهندساً بتنظيم القاهرة، وهكذا عاش حافظ عيشة ضيقة في صغر سنه. فكان يعرف أحوال اليتيم بحمد بالغ كما هو يقول:

1 همايون، النقد الأدبي، ترجمة أحسن عباس ومحمد يوسف نجم، القاهرة، 15

2 عبد المنان الخفاجي، مدارس النقد العربي الحديث، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر 1995م، ص 1 و 6

شاعر العبيدي، في رحاب الكلمة دراسة أدبية ونقدية، النجف الأشرف، 1992، ص 1 و 7

واهية	أراها	أنى	موتى	عليك	ثقلت
داهية <sup>1</sup>	في	متوجه	ذاهب	فانى	فافرح

و كان له مواقف انسانية كثيرة مع اليتامى ليس فقط في شعره ولكن ممارسة في حياته، أنه كفل بنفسه طفلة يتيمة، وكانت اسمها (جليلية) رباها في داره. فواجه حافظ مشاكل كثيرة منذ ترك بيت خاله، لمواجهة الحياة منفرداً، فيكشف عن التجربات الحياتية في شعره بأسلوب خاص، فسلك معروف الرصافي بهذا المسلك مكتشفاً أحوال اليتيم في قصيدته "أم اليتيم":

رمت مسمعى ليلاً بأنه موئم  
فألقت فوادى بين أنياب ضيغم  
وباتت توالى في الظلام أنينها  
وبت لها مرمى بنهشة أرقم

ويقول :

كأن نجوم الليل عند ارتحافها  
تصيحخ الى ذاك الأنين المعجم  
فها خفقان النجم الا لأجلها  
وما الشهب الا أدمع النجم ترقم<sup>2</sup>

ان الرصافي يتميز بتقديم عواطفه ومشاعره وتعبيراته قوية بالحالات الانسانية الباسة في المجتمع، فنجد وصف البوس والبوساء في شعره. فيقول مصطفى السقا عن شعر الرصافي في السياسة والاجتماع: "انهما غنيان بالعواطف القوية الجياشة التي تدل على أنه كان سياسياً ووطنياً، بل كان انساناً من الطراز الأول في جيله ويتمنى الخير لبلاده ولأمه بل للعرب جميعاً وللشرق كله وتذوب نفسه حسرات عندما يرى البوس والضعف في شتى مظاهره".<sup>3</sup>

أما قضية اليتيم عند الرصافي، فهي ذات شأن كبير، لكنها ما زالت تصطبغ عنده بالبوس والحزن والحرمان، فتبكي العيون وتدمى القلوب ومن أبرز قصائده بهذا الصدد: أم اليتيم واليتيم في العيد وهي أطول قصائده، والجدير بالذكر، وسلك الرصافي فيها أسلوباً قصصياً كما هو يبين أحداثاً ومواقف درامياً تدور فيها فكره حول أحوال اليتيم والفقراء في العيد وصورته التي تختلف عن صورة الآخرين ويكشف الشاعر فيها الرصافي مشاعره ومشاهداته كما تعكس سلوكه وأفكاره أكثر من تسليطه الضوء على اليتيم، فيقسم قصيدته الى ستة أقسام من ناحية مشاعره. فهي: الحديث وخروج الشاعر بعد صلوة النحر ليشاهد احتفالات الناس

1 حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، تقديم محمد كاني، الحياة الأمت للكتب، القاهرة، 2022/1، 0

2 الرصافي معروف، ديوان معروف الرصافي، متحف الجيلانية، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، قاهره مصر،

بالعيد ومشاهدة الصبي اليتيم الحزين وتسجيل موقفه من معاناة اليتيم واستعراض الشاعر مجموعة المآسى وذكر الشاعر شؤون العيد وذكر مأساة اليتيم، سنذكرها منفرداً بالأمثلة العديدة من شعره.  
أما الحديث عن صباح يوم العيد، فيذكر الرصافي الحديث عن صباح يوم العيد وأثره في نفس اليتيم فهو يرى الناس منقسماً الى النوعين : النوع الأول: الذى يتهيج بالعيد والنوع الثانى : الشخص الذى يبتسب به كما هو يكشف في أشعاره:

أطل صباح العيد في الشرق يسمع	ضحيجاً به الأفراح تمضى وترجع
صباح به تبدى المسرة شمسها	وليس لها الا التوهّم مطلع
صباح به يجتال بالوشى ذو الغنى	ويعود ذا الأعدام طمر مرقع
صباح به يكسو الغنى وليده	ثياباً لها ييكى اليتيم المضيع
صباح به تغدوا الحلالا عل بالحلى	وترفض من عين الأرامل أدمع
ألا ليت يوم العيد لاكان أنه	يجدد للحزن جد والسرور تصنع
قد أبيض وجه العيد لكن بوسهم	رمى نكتنا سودا به فهو أبقع <sup>1</sup>

فيذكر الشاعر أحوال اليتامى والفقراء في صباح يوم العيد وانقسام الناس ما بين مسرور وحزين وغنى وفقير ويكشف عن مظاهر الحزن في التصنع في السرور الذى قد يظهره البعض تكلفاً ومدارة وكذا يذكر مظاهر الحزن مثلما البوس والحنى والحزن، فأصبح العيد للمحزون حزناً وللمكروب كرباً.  
وأما خروج الشاعر بعد صلوة النحر ليشارك احتفالات الناس بالعيد، وفي هذا القسم يذكر الشاعر عما يشاهد خلال خروجه بعد صلوة العيد. فيذكر الرصافي حركات الناس في العيد، ومظاهر الغنى والفقير وألوان الاحتفالات الصاخبة في ذلك اليوم كما هو يقول:

خرجت بغد النحر صباحاً فلاح لي	مسارح للأضداد فيهن مرتع
خرجت وقرص الشمس قد ذرشارقاً	ترى النورسيلاً به يتدفع
ولما بدت حمراء أيقنت أنها	بها خجل مما تراه وتسمع
وبعض له أنف أشم من الغنى	وبعض له أنف من الفقر أجدع
وفي الحى مزمار لمشجى نعيه	غدا الطبل في دردابه يتقعقع <sup>2</sup>

فيذكر الشاعر مشاهدته عند الصبي الحزين يقف بجوار أقرانه، فيعرف بدهاة من ظهور بوادى البوس عليه، أنه يتيم، فيصور دقيقاً موثراً مستغرماً في أحواله كما هو يقول:

1 أيضاً

2 أيضاً

وقفت أجيل الطرف فيهم فراغنى	هناك صبي بينهم مترعرع
صبي صبيح الوجه أسمر شاحب	نخيف المباني أدعج العين أنزع
يزين حاجبيه اتساع جبينه	وفى عينه برق الفطانه يلمع
عليه دريس يعصر اليتيم رذنه	فيقطر فقر من حواشيه مدقع
يليح بوجه للكآبة فوقه	غبار به هبت من اليتيم زعزع
يرد ابتسام الواقفين بحسرة	تكاد لها أحشاه تتقطع
ويرسل من عينيه نظرة مجهش	وما هو بالباكي ولا العين تدمع
له رجفة تتناجوهو واقف	على جانب والجو بالبرد يلسع
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد	على البرد من برد به يتلفع <sup>1</sup>

فيصور الرصافي تصوير الصبي اليتيم مكتشفاً خصوصية شخصه، ومتميزاً له من أقرانه مثلما صبي وصبيح الوجه وأسمر شاحب ونخيف المباني ووأبعج العين وأنزع ويزين حاجبيه اتساع كما هو يقول: في عينه برق الفطانه يلمع. فيستعمل الشاعر معجماً لفظياً مثلما: عليه دريس يعصر اليتيم رذنه ويقطر فقر من حواشيه يليح بوجه للكآبة وفوقه غبار وتلقاه واجماً ويرد الواقفين بحسرة وأحشاه تتقطع ونظرة مجهش وله رجفة تتنابه ولم يجد على البرد من برد به يتلفع. . . فهذه الكلمات تدل على مهارة الشاعر، كيف هو يعرف الصبي اليتيم وكيف الصبي اليتيم يقف بين أقرانه. فصفاته المذكورة مشتركة بين الأطفال اليتامى في كل مكان وزمان.

فيقدم الشاعر الحوار الذي قام بينه وبين الصبي اليتيم مشيراً الى الموعد بينهما ويكشف الرصافي عن طموحه لمعرفة شأن الصبي اليتيم ويحرص شاعرنا على الابانة عن موقفه ازاء هذا اليتيم كأنه يريد أن يظهر عواطفه الانسانية بشكل خاص كما هو يقول:

فلما شجاني حاله وأفزنى	وقفت وكلى مجزع وتوجع
ورحت أعاطيه الحنان بنظرة	كما راح يرنو العابد المتخشع
و أفتح طرفى مشبعاً بتعطف	فيرتد طرفى وهو بالحزن مشبع
هناك على مهل تقدمت نحوه	وقلت بلطف قول من يتضرع

فهو يخاطب:

أيا بن أخي من أنت ما اسمك ما الذى ؟	عراك فلم تفرح فهل أنت موجع ؟
فهب أمامى من رقاد وجومه	كما هب مرعوب الجنان المهجع
وأعرض عنى بعد نظرة يأس	وراح ولم ينبس الى حيث يهرع

فعبته مستطلعاً طلع أمره على البعد أبقوا الأثر منه وأتبع<sup>1</sup>

فأبنا في الأشعار المذكورة، يصور لنا الرصافي مدى اشتغاله باليتيم نحو التعرف على أحواله، نراه يقطع ذلك الجو النفسي المشحون بتعاطفه مع الصبي اليتيم بروية صديق له يذكره بموعد سابق ضرب بينهما كما هو يقول:

وبناه ماش حيث رحت خلفه أدب ديبب الشيخ طوراً وأسرع  
لحت على بعد إشارة صاحب ي ينادى أن أرجع وهو بالثوب ملع  
فأومات أن ذكرته موعداً لنا وقلت له: اذهب وانتظر، فسأرجع

فيقص الرصافي علينا أحداثاً درامية ذات علاقة بصبي يتيم، فخرج بنفسه كما خرج بنا عن ذلك الجو النفسي الذي أدخلنا فيه وكذا يقص شاعرنا علينا حدثاً حقيقياً ثم يرجع الى موضوع اليتيم، ففر اليتيم منه ليدخل داراً، حين انشغل الشاعر منه، فهو يقول بهذا الصدد:

وعدت فأبصرت الصبي معرجاً ليدخل داراً بابها متضعع  
فلما أتيت الدار بعد دخوله وقلت حيال الباب والباب مرجع

فأراد الشاعر أن يكشف مأساة أخرى متمثلة في قصيدته المسمى : أم اليتيم، فهو يقول:

سمعت بكاء ذا نشيج مردد تكاد له صم الصفا تتصدع  
فحرت وعيني ترمق الباب خلصة وللنفس في كشف الحقيقة مطمع  
أرجع أدراجي ولم أك عارفاً جلية هذا الأمر أم كيف أصنع؟

فيظهر لنا أنه حريص أن يكشف الحقائق المستورة كما هو طامع في التقدم على مزيد من الحقائق المأسوية التي تزيد من حدة الموضوع وأثارته. وكذا يستعرض شاعرنا مجموعة من المأسوية كما كشف الشاعر لنا عن أم الصبي اليتيم، فإنه لم يهتم بتوضيح شخصية الصبي اليتيم، فهي شخصية درامية ألتي تظهر فجأة وهو واقف: فمر تعجوز في الطريق وكانت خلفها فتاة يغشيها ازار وبرقع فيسألها الشاعر عن اسمها: فتقول انها بوزع ثم يستقر عن هذا الصوت الباكي الحزين الذي سمعه في الدار فتجيبه العجوز في تعجب، ومنها يقول:

فقلت وأنت أنه عن تنهد و في الوجه منها للتعجب موضع  
أيا بني ما يعينك من نوح أيم لها، من رزايا الدهر قلب مفعج



وانى قد جارت على مواطنى فوادى على قطا نحن موزع<sup>1</sup>

فرأينا في الأشعار المذكورة، يستعرض شاعرنا شخصية العجوزة أى والدة اليتيم ليكشف عن المأساة، فهو يقول:

ألا انما (سلمى) تعيسة معشر من الصيد أقوت دارهم فهى بلقع  
و صارعهم بالموت حتى أبادهم من الدهر عجار شديد مصرع  
فلم يبق الا زوجها وشقيقها خليل وأما الآخرون فودعوا

فرأينا في الأشعار المذكورة، سعى الشاعر أن يقدم مجموعة من الحقائق أو المآسى التى جره اليها اليتيم شاخصة في والدة اليتيم وأخوها التى يكفل طفلها، فهو يعرض لهذه المآسى مجتمعة ليزيد من عمق مشاعره وفكره عن اليتيم. ويسعى الشاعر أن يتوجه الناس مطلوبا منهم الشفقة والمودة. وكذا يقص الرصافي علينا حكاية فتاة مسكينة ووصفها بقوله: (شجا أرى أم ذاك طيف الخيال). ورأينا كيف يأتى الرصافي باستخدام الحوار ووتوظيف أسلوب الاستفهام كما هو يقول:

أيا بن أخى من أنت ما اسمك؟ ما الذى عراك فلم تفرح، فهل أنت موجع<sup>2</sup>

وكذلك يتوجه الشاعر بسؤاله الى العجوزة (بوزع) يسألها عن الفتاة الحزينة (أم اليتيم)، فهو يقول:

تعرضتها مستوقفاً، وسألتها عن الاسم، قالت فعندى شرح ما نتوقع<sup>3</sup>

وجملة القول، يذكر الشاعر شوم يوم العيد، ويلتقى بأصحابه، ويقص عليهم حال اليتيم وعدم اهتمامهم بالأمر ثم يحنم قصيدته بذكر حال شعبه ويلح الى جور حكامه وقسوته في ظلم شعوبهم، ثم يذكر بماضى الشعب الزاخر بالعدل الاجتماعى. فيأتى الرصافي بانشغاله بموجوع اليتيم وما يتعلق به وكذا اهتم الشاعر بالجانب الصوتى تعبيرا عن مأساة الأرامل واليتامى. واهتم الشاعر على سرد الحدث بصورة درامية مستخدما الجمل الفعلية وتكرار الصيغ بعينها. فيعرض الشاعر طريقة الندب في بكاء الميت، فنجح الشاعر في تقديم الصور الفنية والأخيلة والفكر القيم لايقاظ شعبه من النوم. فالكثير من قصائده تتحدث عن المسائل الاجتماعية ولا سيما الفقر والحرمان ولقب بشاعر البوسا، ونجده يتحرق قلبه حبا لأمه في شعره ولا سيما حين غادر العراق فقال:

1 أيضا

2 أيضا

3 أيضا

وطفت	أذكر	العرا	ق	فعاد	صفوى	ذا	كدور
وزكرت	من	تبكى	هنا	ك	على	بالدمع	الغزير
يا أم	لا	تحشى	فان	الله	يا	أمي	مجيري
ودعى	البكاء	فان	قا	بي	من	بكائك	في سعي <sup>1</sup>

ثم لا نجده يتكلم عن أبيه في شعره، وأهس بنفسه مباشرة طعم اليتيم والفقر والحرمات .  
أما الأفكار والمعاني في شعر الرصافي، فنجد في شعره التأثير والتأثر بالتراث العربي مثلما تأثر القرآن الكريم  
كما هو يقول في قصيدته: اليتيم المخدوع :

سقاء من الردى كأساً دهاقاً عفاف النفس والعرض السليم<sup>2</sup>

فرأينا في الشعر المذكور، يبدأ الشاعر من سورة النبأ : كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: (وكأساً  
دهاقاً<sup>3</sup>) وكذا قال الرصافي متحدثاً عن (دار اليتامى) فهو يقول:

وقفت بها أعاطيها التحايا واستسقى لسائها الغمام<sup>4</sup>

فهذا واضح لنا، الشاعر متأثر بظاهرة الوقوف بالظل والاستسقاء بالغمام كما نجد قول أبي طالب عن  
النبي ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل<sup>5</sup>

وكذا قال الرصافي مشيراً الى قول عمرو بن كلثوم:

وترام كل من فجعوا بيتهم صغار قبل ما بلغوا الفطام<sup>6</sup>

فنجد الرصافي متأثراً بقول عمرو بن كلثوم كما هو يقول:

1 أيضاً

2 أيضاً

3 النبأ، 36

4 الرصافي معروف، ديوان، 125/1

5 التعميم القرشي، أحمد بن وهاب بن عبد الدائم، نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: شهاب الدين النويري، دار الكتب

والوصية القمية، القاهرة، 1423هـ، 11

6 الرصافي معروف، ديوان، 345/1

إذا بلغ الفظام لنا صبي تكرر له الجبار ساجدينا<sup>1</sup>

وقال الرصافي متأثراً بقول عنتر بن شداد، فهو يقول:

و أ صبح قلبي وهو كالشعر لم تدغ له شعراء القوم من متردم<sup>2</sup>

وكذا نجد قول عنتر بن شداد كما هو يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم<sup>3</sup>

فأتضح لنا من الأمثلة العديدة، بأن الرصافي يأتي باستخدام الكلمات والمعاني والجمل والتعبيرات المبتكرة ماخوذاً من كلام العرب كما هو واضح. فنجد التعابير المحدثنة المقبولة في كلامه. واستشهد الرصافي من الشعراء العرب مثلما شعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين كما نجد أثره بشعرمتنبي. فهو يقول الشعر في الجمل والأفعال الماضية.

أما النزعة القصصية: فنجد أسلوباً تنوعاً في شعر الرصافي ومن قصائده قصصية: اليتيم في العيد والمطلقة والفقر والسقام وأم اليتيم وغيرها. وقد أهتم الرصافي بقضايا السياسية والاجتماعية في شعره تقديماً للصور البليغة والعواطف القصصية متجنباً بالمظاهر البديعية المتكلفة. وكذا نجد قصيدته: أم اليتيم عدم الربط بين أحداثها. وكذا نجد الهبوط الى الثرية عند الرصافي ولا نستشعر في شعره حرارة الشعاعية، سنأتي بالأمثلة العديدة بهذا الصدد من كلامه: يقول الرصافي:

وبيناه ماش حيث رحلت خلفه أدب ديب الشخ طورا وأسرع

فأومأت أن ذكرته موعداً لنا وقلت له اذهب وانتظر فسأرجع<sup>4</sup>

وقد رأينا في الأشعار المذكورة، قوله: (وبيناه ماش) فيخرج قوله عن وتيرة الشعر وإيقاعه. والشعر الثاني، فهو أقرب الى النثر بدلا من الشعر وكذا نجد الشواهد الأخرى في كلامه كما هو يقول :

فأطلق من مسدسه رصاصاً به في الرمي تنخرق الجسوم

ولم يقتله (ابراهيم)، فيما أرى، بل ان قاءله (سليم)

أليس (سليم) الملعون أغوى (نعيماً) فهو شيطان رجيم<sup>5</sup>

1 عامل يعقوب، ديوان عامر بن كلثوم، دار الكتب العربي، بيروت، 1994هـ، 90

2 الرصافي معروف، ديوان، 256/1

3 أمين سعيد، شرح ديوان عنتر بن شداد، مكتبة تجارية الكبرى، مصر، 122

4 الرصافي معروف، ديوان، 257 /1

5 أيضاً

وقد رأينا في الأشعار المذكورة، يستعمل الشاعر كلمات: مسدسه و رصاصاً والمي وتنحرق، فهي ليست شاعرية، وكذا في قوله: ( فيما أرى) فهي نثرية وهببت من مقام الشاعرية، والشعر الثاني لا يختلف كثيراً عنه، ولا يتوافق مع الإيقاع الشعري. والجدير بالذكر، نستطيع أن نقول، يتعلق الرصافي بالمذهب الكلاسيكي كما هو يختار موضوعات الشعر مباشرة ومنسوبة إلى المجتمع الإنساني، فهذا واضحة في قصائده:

أم اليتيم واليتيم في العيد واليتيم المخدوع والأرملة المرضعة.

وجملة القول، نستطيع أن نقول، كان معروف الرصافي شاعراً وأديباً عربياً كبيراً وواحداً من الشعراء المصلحين. فنجد في شعره الوصف والغزل والمدح والثناء والحكمة وصور اجتماعية وإنسانية بمظاهر الصنعة البديعية بالصور التقليدية والتعبيرات الصادقة. وشعره مملوء بالاجادة والابتكار مع أفكاره القيمة. وكذا وظف الرصافي أساليب بلاغية الأخرى مثلما الاستعارة والكناية كما نجد في قصيدته: اليتيم. وقوله:

فأصبحت ظمأن الجفون إلى الكرى وان كنت ريان الحشا من تألمى

فظمأن الجفون إلى الكرى : كناية عن افتقاده للنوم، والجانب الآخر من الصورة في الشطر الثاني، فنجد فيه الغرابة. وقال في مقام آخر:

أرى فحمة الظلماء عند أئينها فأعجب منها كيف لم تتضرم

فنجد الاستعارة المكنية واضحة : أى فحمة الظلماء وزادها بقوله: كيف لم تتضرم؟ وكذا قال الرصافي : قد أبيض وجه العيد لكن بوسهم رمى نكتا سودا به فهو أبقع.

فنجد في قوله: أبيض وجه العيد، كناية عن الفرح والبشاشة، وكذا نجد استعارة: أى وجه العيد، وفيه تشخيص العيد. وكذا جمع في صوره بين الكناية والتشبيه كما هو يقول في قصيدته: اليتيم المخدوع: فخر

إلى الحنين به (نعيم) كما انقضت من الشهب الرجوم

وقد كان الرصافي أكثر اهتماماً بشأن اليتيم وأطولهم وقوفاً عند همومه وقضاياها ماخوذة من تجربته ذاتية متميزة. وكذا نجد البواعث السياسية والشعورية في شعره. ونجد الأفكار والمعاني الجديدة في شعره بكثرة. ومن محتويات ديوانه : الكونيات والاجتماعيات والفلسفيات والوصفيات والحريقيات والمراثي ونساءيات والتأريخيات والسياسيات والحرييات والمقطعات. وللرصافي مكان رفيع في الأدب العربي الحديث بين معاصريه وترك تراثاً عظيماً خلفه.